● **المبحث الثالث : الخطاب السرى النزيه وتجنب قول السوء :**

النص المحورى الذى يحدد طبيعة خطاب الأقلية هو نفس النص الأسبق فى بيان خطاب الأكثرية، لكن بالنظر إلى دور الاستثناء فى بيان قيمة دور الأقلية فى الخطاب السرى والنص هو قول الله تعالى : ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٤].

نعم إن هناك نصوصا قرآنية وحديثية تبين طبيعة الخطاب المقبول شرعا، كقوله تعالى : ﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ [النساء: ١٤٨] وقوله : ﴿ **وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٠] وقول الرسول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت »[١] ولكن النص الذى يبين أن هذا الخطاب النموذجى من طبيعة الأقلية ومن خلقها هو ما يفهم من النص المحورى، لا سيما وقد حدد مجالات القول وموضوعاته الثلاثة التى لا يلتزم بها إلا قليل من الناس، كما يبين أن الشرط فى قبول ذلك هو الإخلاص فى ذلك الخطاب الله وحده، بحيث يجرى على اللسان « ابتغاء مرضاة الله » لارياء ولا تظاهرا أوتسييسا أو ايديولوجيا.

فالخطاب السيياسى أو الاجتماعى أو غيرهما إذا كان الهدف منه هو استقطاب الجماهير قبل مرضاة الله لا يعد من الخطابات السرية التى تتصف بها الأقلية، حتى لو كانت موضوعاتها هى نفس الموضوعات المستثناة من خطاب الأكثرية الذى نفى عنه حصول الخير « لا خير فى كثير من نجواهم » لأن الشرط فى إدراج صاحب الخطاب ضمن هذه الأقلية هو الإخلاص لله فى ذلك الخطاب، فإن كان الخطاب إيديولوجيا انتفى أن يكون كذلك، ومن ثم صعب إدراجه ضمن الأقلية، ودخل فى خطاب الغوغاء ورعاع العامة، الذين لا يرجى من خطابهم خير يعم الآجل والعاجل.

---

(١) الحديث : صحيح البخارى : كتاب الأدب باب رقم ٦٠١٨ مج : ٤ ص ٩١ دار الكتب العلمية.

فالفقه بأصول الشرع فى الخطاب والكلام هو الذى يقوم اللسان ويوجهه نحو ما فيه الخير، لذلك قال عبد الرحمن الجوزى: «رأيت كثيرا من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة، ولا يتحاشون من غيبة»[1]، ويجعل هذا السلوك من باب حفظ الفروع وتضييع الأصول، ويرى أن سبب ذلك علتان: «تحكُّم العادة وغلبة الهوى فى تحصيل المطلوب»[2]، وهذا مخالف لما يتطلبه الدين الصحيح وهو أن حفظهما أولي، فإن لم يكن ذلك فحفظ الأصول أولى من حفظ الفروع.

إن خطاب الأقلية هو الخطاب الملتزم الذى تحكمه مرجعية صارمة تنبع من الذات المنضبطة بالشرع، تلك التى تمنعه من النطق بالسوء من القول، لأن الله لا يحب الجهر بالسوء من الكلام، وما لا يحبه الله ينبغى على المؤمن تركه، لأن حبه تابع لحب الله،وكرهه تابع لكره الله.

وعلى العكس من ذلك لا يقول إلا القول المستقيم، الذى ينسجم مع الشرع وإن فارق هواه، لأنه بذلك فقط يوافق بكلامه النص الذى يشرع لهذه الجهة من السلوك البشرى في مجال المعاملات بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدا**﴾ [الأحزاب: ٧٠] قال الزمخشرى: «المراد نهيهم عما خاضوا فيه.. والبعث على أن يسددوا قولهم فى كل باب، لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله، والمعنى راقبوا الله فى حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم»[3]، وهذا الذى عمل الرسول ﷺ على أن يربى المجتمع المدنى عليه حين كان يقول لهم فى أحاديث كثيرة روى البخارى منها: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه»[4] «كف لسانك إلا من خير»، «من صمت نجا» وذلك هو مراد الرسول ﷺ من توجيه سفيان الثقفى حين قال له: «يا رسول الله ما أكثر ما تخاف على؟ قال هذا، وأشار إلى لسانه»[5] وكذلك كان الحال فيما رواه

---

(١) صيد الخاطر: ١٦٣.
(٢) نفسه
(٣) الكشاف: ٣/٢٧٦.
(٤) البخارى: ١/١٣ مسلم الصحيح: ١/٦٥.
(٥) صحيح ابن حبان: ١٣/٥٠٩، ٢/١٣١٤.

الترمذى من حديث عقبة: «قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك»، وأوضح من ذلك كله فى بيان مرجعية الخطاب قول الرسول ﷺ فيما رواه البخارى: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»[1] فهذا الحديث يضع الخطاب بين حديه الأساسيين، القول السديد الموصل للخير، المحقق للعمل الصالح أو الصمت اتقاء للشر، وبعداً عن الخوض فيما يضر الناس والنفس، قال ابن حجر فى «فتح البارى» بصدد شرح هذا الحديث: «هذا من جوامع الكلم: لأن القول كله إما خير وإما شر، وإما آيل إلى أحدهما، فدخل فى الخير كل مطلوب من الأقوال فرضها وندبها فأذنَ فيه على اختلاف أنواعه، ودخل فيه ما يؤول إليه، وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إلى الشر فأمر عند إرادة الخوض فيه بالصمت، وقد أخرج الطبرانى والبيهقى فى الزهد من حديث أبى أمامة نحو حديث الباب بلفظ: «فليقل خيرا ليغنم أو ليسكت عن شر ليسلم»[2].

والآن: ما الهدف من تحديد طبيعة «خطاب الأقلية» بهذه الضوابط؟ فى الواقع كانت النصوص السابقة تتضمن تعليلا لذلك، كما كانت الشروح تبين بعض ذلك، أما النص السابق فيبين أن القول السديد من شأنه أن يؤدى إلى صلاح الأعمال، وغفران الذنوب قال تعالى: ﴿**وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾[3].

قالْ الزمخشرى فى بيان العلة: «لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله»[4] وقال ابن عاشور: «القول يكون بابا عظيما من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر.. فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون فى التخلق بها، وبالقول السيء تشيع الضلالات والتمويهات فيغتر الناس بها ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، والقول السديد يشمل الأمر بالمعروف

---

(١) صحيح البخارى: كتاب الأدب باب ٣١ رقم ٦٠١٨ مج ٤ ص ٩١.
(٢) فتح البارى: ج١٠ ص٤٤٦.
(٣) الكشاف: ٣/٢٧٦.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٢/١٢٢.

والنهى عن المنكر، ولما فى التقوى والقول السديد من وسائل الصلاح جعل للآتى بها جزاء بإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب..، فإصلاح الأعمال جزاء على القول السديد لأن أكثر ما يفيده القول السديد إرشاد إلى الصلاح أو اقتداء الناس بصاحب القول السديد.. ثم إن ضميرى جمع المخاطب لما كانا عائدين على الذين آمنوا كانا عامين لكل المؤمنين فى عموم الأزمان سواء كانت الأعمال أعمال القائلين قولا سديدا أو أعمال غيرهم من المؤمنين الذين يسمعون أقوالهم، إنهم لا يخلون من فريق يتأثر بذلك القول فيعملون بما يقتضيه على تفاوت بين العاملين، وبحسب ذلك التفاوت يتفاوت صلاح أعمال القائلين قولا سديداً، والعاملين به من سامعيه، وكذلك أعمال الذى قال القول السديد فى وقت سماعه قول غيره، وفى الحديث: (فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) فظهر أن إصلاح الأعمال متفاوت، وكيفما كان فإن صلاح المعمول من آثار سداد القول»[1].

من كل ذلك يتبين أن سداد القول صفة: (خطاب المؤمنين)، وأن الهدف منه هو تحقيق الخير المطلق، فهو لا يخلو من تحقيق الأعمال الصالحة التى تنبثق عن سماع التوجيهات الخيرية، أو الالتزام بأخلاقها بل قد يتجاوز السامع ذلك إلى الدعوة إلى عمل الخيرات وترك المنكرات لأن سداد القول رأس الخير كله.

وعلى هذا فإن خطاب المؤمنين، وهم الأقلية، من شأنه تحقيق الخير كله سواء على المستوى السياسى أو المستوى الاجتماعى أو الثقافى أو الدعوى، فهو دائما يؤدى إلى صلاح الأعمال والأخلاق وصفاء والضمير، مما يتسبب فى رقى المجتمع وتطوره وازدهاره.

ويمكن القول أن طبائع المجتمعات تابعة لطبيعة أقوالهم، لأن الأفعال والسلوكات وليدة التربية التى وسيلتها الأساسية الخطاب السديد «فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون فى التخلق بها».

وهذا ما يفسر الأثر العظيم الذى يحدثه الأنبياء والمصلحون فى المجتمعات

---

(١) نفسه ١٢٢ – ١٢٣.

إذ تتغير من حال الشر كله إلى حال الخير كله، وقد لمس ذلك الصحابى الجليل رضى الله عنه فوصف ذلك التغير لملك الحبشة فأدهشه بقوله: «أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.. قال لهم النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»[1].

فانظر إلى هذا التغيير العجيب الذى أحدثه الخطاب النبوى فى المجتمع الجاهلى، سواء مجتمع العرب فى الجزيرة العربية أو المجتمع النصرانى فى كل ديار المسيحية فى عهد الإيمان، كما يفهم من قول النجاشى: «إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة».

نعم إنه الخطاب الإيمانى الذى يخرج من مشكاة النبوة فيحدث المعجزات بتغيير المجتمعات، من حال الفوضى العارمة إلى حال النظام والاستقامة، وهو دائما أثر خطاب الأقلية الذى حدده النص المحورى عن طريق الاستثناء بقوله تعالى: ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ١/ ٣٥٩ - ٣٦٠ دار إحياء العربى بيروت.